PDF Compressor Pro

للكل، استولى على قلبه التوكل والرضا والتسليم، وصار موقنًا بريئًا من الغضب والحقد والحسد، وسوء الخلق، فهذا أحد أبواب اليقين، ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه وتعالى بالرزق في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦)، واليقين بأن ذلك يأتيه، وأن ما قدر له سيساق إليه، ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما فاته، ومن ذلك يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك، فكما يحرص على تحصيل الخبز طلبًا للشبع فيحفظ قليله وكثيره، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها، فكذلك يجتنب المعاصي قليلها وكثيرها، صغيرها وكبيرها، وبعد ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك، فهذا متيقن عند كل بالمعنى الأول- الجاري على اصطلاح المتكلمين- وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثاني- الجاري على اصطلاح الصوفية- فهو عزيز ويختص به الصديقون وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدبًا في جميع أحواله، كالجالس بمشهد مَلكْ مُعَظَّم ينظر إليه، فإنه لا يزال مُطْرِقًا متأدبًا في جميع أحواله، متماسكًا محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب، ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة؛ إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع على ظاهره إلى آخر ما قال رضي الله عنه ونفعنا بعلومه آمين.

PDF Compressor Pro

ثم قال تعالى ختامًا للسورة الكريمة ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي: إذا ثبت أن ما بين كلـه هو حق اليقين، فنزه اسم ربك العظيم من جـميع سمات النقص، بمعنى أنك لا تسميه تعالى بما يوهم نقصًا، ولا تذكر اسمه عز وجل إلا وأنت على أكمل حـالات الأدب من طهارة واستـقبال للقـبلة وبعد عن الأماكن القـذرة ومحال السوء وما إلى ذلـك، وللسادة الصوفيـة مباحث خاصة بآداب الذكر يتعين الرجوع إليها والعـمل بمقتضاها خصوصًا لسالكي الطريق الســائرين إلى الله تعالى؛ لأن مخـالفتها وإهمالها من أكـبر القواطع والعوائق، وقد قال الأخضري رضي الله عنه في منظومته:

فـــواجب تـنزيه ذكـــر الـله ... علـى اللبـــيب الذاكـــر الأواه
عن كل مـــا تفـعله أهـل البـدع ... ويقـــتـدى بفـــعل أرباب الورع
فـــقـد رأيـنا فـــرقـة إن ذكـــروا ... تبـــدعـــوا وربما قـــد كـــفـــروا
وصنعوا في الذكـر صنعًا منكرًا ... صعـبًا فـجاهدهم جـهادًا أكـبرا

ومن أهم هذه الآداب أن يكون الذكر بالأسماء الواردة في الكتاب والسنة، وأن ينطق بهـا كما وردت فـلا يكون فيهـا تقطيع ولا زيادة ولا نقص لشيء من الحروف، وأن يكون الذكر على هيئـة الخشوع والوقار، ليس فـيه صراخ ولا تزعـيق ولا تمزيق ثياب وتخـبط على الأرض، وألا تحضر معـه آلات لهو كما يقع لكثير من الجهلة، وأمـا الاهتزاز والتمايل القليل وإنشـاد الشـعـر المحرك للأحـوال السنيـة- الخـالي من الفـحش والعبارات المثيـرة للشهوات خصوصًا إذا كان بعض الحـاضرين ضعيف الحال- فهذا لا بأس به.

PDF Compressor Pro

وجرى بعض المفسرين على أن كلمة ﴿ اسْمِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ باسْمِ رَبِّكَ ﴾ مزيدة، والمعنى نزه ربك العظيم، وهذا أشمل؛ لأنه يعم تنزيه ذاته تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه عما لا يليق بكل.

أما تنزيه ذاته تعالى فبأن تعتقد أنه جلَّ شأنه منزه عن الحدوث والفناء والتعدد والعجز والجهل ومماثلة الحوادث، فليس تعالى جوهراً ولا عرضًا ولا جسمًا ولا حالاً في شيء أو متحداً بشيء كما يزعم بعض أرباب الملل الفاسدة ومنهم الطائفة المسماة بالباطنية، ومن الغريب زعم البعض أن من الصوفية من يقول بذلك، وهذا زعم باطل لا يجرؤ عليه إلا أحد رجلين: مكابر أو جاهل بكلام القوم.

وأما تنزيه صفاته تعالى فبأن تعتقد أنها مخالفة لصفات الحوادث، فليس علمه تعالى كعلمنا ولا قدرته كقدرتنا...إلخ، وأنها قديمة قدمًا ذاتيًا خلافًا لمن ادعى أنها ممكنة بالنظر لذاتها، قديمة بقدم الذات العلية فإنها دعوى باطلة وإن تورط فيها بعض العلماء، وأما تنزيه أسمائه تعالى فعلى ما سبق بيانه.

وأفعاله وأحكامه تعالى تنزيهها بأن تعتقد أنها غير معللة بالأغراض والعلل الباعثة، وإن كانت لا تخلو عن المصالح والحكم العائدة إلى العباد تنزيهًا لها عن العبث، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

هذا ويستنبط مما سبق الأمور الآتية:

١- إن درجات المؤمنين متفاوتة عند الله تعالى، فمنهم المقربون ومنهم غير المقربين، وأساس التقرب منه تعالى بالنظر لعالم الحكمة هو

PDF Compressor Pro

أداء الفرائض والإكثار من النوافل، كما بين ذلك الحديث القدسي المشهور الذي رواه البخاري في صحيحه فقد جاء فيه: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» الحديث.

وقد أفاد هذا الحديث أن المقربين منه تعالى لا يرد دعاؤهم ولا رجاؤهم (سواء دعوا أو رجوا لأنفسهم أو لغيرهم) إلا أن الإجابة تارة تكون بعين المطلوب، وتارة تكون بغيره؛ لعلمه تعالى أن المصلحة الحقيقية في ذلك الغير، كما أنها تارة تكون في نفس الوقت الذي شاءه العبد وتارة تكون في وقت آخر.

٢- إن المؤمن مهما كان منعمًا في الحياة الدنيا فإن ما ينتظره من النعيم في الدار الآخرة أعظم وأتم، يؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ ﴾ أي: فله راحة من الدنيا وما فيها، ومن ثم ورد في الحديث الصحيح: «إن المؤمن إذا حضر بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه» وبهذا فسر قوله ﷺ في الحديث الآخر: «الدنيا سجن المؤمن» فهي سجن له، ولو كان في أرغد عيش بالنظر لما له في الآخرة من الكرامة والنعيم المقيم، يعني أنها إذا قيست بذلك كانت بمثابة السجن، ولهذا لما حضرت الوفاة عبدالله بن المبارك فتح عينيه وضحك وقال: ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾.

PDF Compressor Pro

وكان مكحول الشامي غالبًا عليه الحزن في حال حياته كلها، فلما دخلوا عليه في مرض موته وجدوه يضحك فقالوا له في ذلك، فقال: وما لي لا أضحك وقد دنا فراق ما كنت أحذره، وسرعة القدوم على ما كنت أرجوه وآمله.

ولما حضرت بلالاً رضي الله عنه الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

وأما الكافر فعلى الضد من ذلك مهما كان في الدنيا في شقاء وألم، فإن ما ينتظره في الآخرة من النكال والعذاب الشديد الخالد أفظع وأطم ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر: ٤٦) .

٣- ثبوت النعيم للسعداء والعذاب للأشقياء في البرزخ قبل يوم البعث لقوله تعالى في المقربين ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ، وفي المكذبين الضالين ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ بناء على أن ما ذكر في الفريقين حاصل في البرزخ على ما سبق، ولا خلاف بين أهل السنة في ذلك. قال السيوطي في شرح الصدور: عذاب القبر هو عذاب البرزخ أضيف إلى القبر؛ لأنه الغالب، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراده به، قبر أو لم يقبر، ولو صلب أو غرق في البحر أو أكلته الدواب أو حرق حتى صار رماداً وذرى في الريح، ومحله الروح والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة، وكذا القول في النعيم، وكما يكون العذاب في البرزخ للكفار يكون لعصاة المؤمنين، إلا أن عذاب الكفار دائم متصل بعذاب جهنم، وعذاب العصاة منه الدائم ومنه المنقطع بسبب صدقة أو دعاء أو غير ذلك.

ومما ورد في السنة بيانًا لنعيم البرزخ ما جاء عنه ﷺ من «أن الله تعالى يأمر بعض ملائكته بأن يفرشوا للمؤمن في قبره من الجنة، ويلبسوه من لباسها، ويفتحوا له في قبره بابًا إلى الجنة ليأتيه روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له - يوسع له - في قبره سبعون ذراعًا، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر» إلى غير ذلك مما وردت به الأحاديث والآثار.

٤- إن لجميع المكلفين في قبورهم حياة برزخية وإن كنا لا ندرك كنهها ولا نعلم كيفيتها، وإلا لم يكن لثبوت النعيم للسعداء والعذاب للأشقياء معنى، وهذه الحياة البرزخية متفاوتة، فتارة تكون مع تفرق أجزاء البدن كما هو حال أغلب العوام، وتارة تكون مع بقاء البدن سليمًا من الآفات من غير تغير ولا تفرق كما هو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ألحق بهم كالشهداء المقتولين في سبيل الحق، وكالأولياء العارفين والعلماء العاملين، وحفظة القرآن الملازمين على تلاوته، العاملين بما فيه، المعظمين له، ولا يلزم من ثبوت هذه الحياة أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك كما تشدق بذلك بعض الأغبياء تهكمًا واستهزاءً؛ لأن للبرزخ حكمًا آخر غير حكم الحياة.

٥- وحينئذ فالموت لا يزيل خصوصية أهل الخصوصية، فمن اختصه الله تعالى بظهور الكرامة على يده في حال حياته الدنيا لا يبعد أن يختصه بذلك في حال حياته البرزخية؛ إذ لا فرق بين الحياتين في هذا المعنى والمتفضل وهو الله تعالى واحد لا يلحقه تغير ولا تبدل، وعلى ذلك

PDF Compressor Pro

فبركات العارفين في حال حياتهم وبعد وفاتهم لا تنقطع، ومن أجاز التوسل بهم في الأولى ومنعه في الثانية فقد فرق بين المتماثلين، ولهذا قال صاحب المدخل: فكما نفع بهم - يعني الصالحين - في الدنيا، ففي الآخرة أكثر.

وقال أيضًا: وما زال الناس من العلماء والأكابر كابراً عن كابر، مشرقًا ومغربًا، يتبركون بزيارة قبورهم، ويجدون بركة ذلك حسًّا ومعنى.

وقال أيضًا نقلاً عن بعض الأئمة المحققين: فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت في حياتهم، والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين اهـ.

والله جل شأنه هو المسئول أن يقيل عثراتنا، ويستر عوراتنا، ويؤمن روعاتنا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ صدق الله العظيم

من سورة المجادلة [١٢، ١٣]

مقدمة

رفع الله تعالى قدر نبيه وحبيبه محمد ﷺ، ونوه بشأنه في كتابه العزيز تنويهًا يشعر النفوس بعظمته، ويملأ القلوب بمزيد جلاله وأبهته، ولقد أبرز الحق سبحانه وتعالى هذا التنويه الخطير في مظاهر مختلفة، ونوعه في جملة أساليب، وقرره في عدة مناسبات.

منها: ما ألزمنا به جل شأنه عند ندائه عليه الصلاة والسلام من تمييزه بالأوصاف والألقاب الدالة على نباهة شأنه، وفخامة قدره، حيث قال عز من قائل: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور: ٦٣)، وكذلك جرت عادته سبحانه وتعالى معه، فإنه ما

PDF Compressor Pro

مخاطبه ولا ناداه إلا بأوصاف الشرف والكمال، وما ذكر اسمه مجرداً إلا وأردفه بما يدل على تعظيمه وتبجيله.

ومنها: ما نهانا عنه سبحانه من رفع أصواتنا فوق صوته، أو جهرنا له بالقول كجهر بعضنا لبعض، وما أثنى به على الذين يغضون أصواتهم عند حضرته، وذم به جماعة الأعراب الذين نادوه من وراء حجراته الشريفة ولم يصبروا حتى يخرج إليهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (الحجرات: ١-٥).

ومن أبدعها وأروعها هاتان الآيتان الكريمتان اللتان نحن بصددهما وهما قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ ...إلخ

فالمقصود بالذات - وإن كان هناك مقاصد أخرى- في الحقيقة من إيجاب تقديم الصدقة عند مناجاته ﷺ إنما هو تفخيم شأنه، وتعظيم جنابه الرفيع، والتخفيف عنه بدفع المتكاثرين عليه للمناجاة، الشاغلين لأوقاته الثمينة، المتسببين في تعطيل بعض وظائفه الضرورية التي كان يقوم بتوزيعها صلوات الله وسلامه عليه خير قيام، فيعطي لكل ذي حق حقه من غير إجحاف ولا تفريط، وقد روي عن ابن عباس وقتادة أن قومًا من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ﷺ في غير حاجة إلا أن تظهر

PDF Compressor Pro

منزلتهم، وكان رسـول الله ﷺ سمحًا لا يـرد أحدًا، فنزلت هذه الآية. ومن هذا القبـيل ما شـرعه الله تعـالى للداخل مكة من الإحرام والغـسل تعظيـمًا لبـيتـه الحـرام، وتمييـزًا له عن بقيـة الأمـاكن، ومن تأمل في نهي الشارع الحكيم عن المبالغة في هذا الغسل عرف يقينًا أنه ليس المقصود منه التجمل ونظافة البدن، وإنما المقصـود فقط إشعار النفس بعظمة هذا البيت المنيف، وتذكيـرها بما له من الحرمة والإجلال. وقـد يخطر ببعض الأذهان مما سنذكره فـيمـا يأتي- إن شاء الله تعـالى- من أن الله تعـالى قـد نسخ إيجاب تقـديم الصدقة قبل مناجـاته ﷺ أن في هذا النسخ تعكيراً على ما قلناه من قـصد تعظيمـه ﷺ بنزول هذا الأمر الكريم، والواقع أنه لا تعكير ولا منافـاة؛ بل الذي نعتقـده أن في هذا النسخ وسوقـه على النحو الـذي ورد بـه: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْـعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ... ﴾ إلخ الدال عـلى جـدارتـه ﷺ بذلك الحكم، وأن النزول عنه، والترخيص في مجاوزته لم يكن إلا من إشفاقهم وتخوفهم من عدم القدرة على المواظبـة والاستمرار عليه - نقول إن الذي نعتـقده أن ورود هذا النسخ على النحـو المذكور هو في الواقع تعضـيد لما قلناه، وتأييـد له غاية التـأييد... وإلا فهل يظن عاقل أن مـرجع هذا النسخ كونه ﷺ ليس أهلاً للحكم المنسوخ، وأن الله تعالى قد أراد بذلك الغض من مـقامـه، والخفض من منـزلته العليـة؟ - سبـحـانك هذا بهتـان عظيم- ويمكننا أن نقـول بعـبارة أخـرى: إن المقـصود إعـلام الخلق بمنزلتـه ﷺ ، ورفعـة قدره فحسب، قـدم الناس بين يدي نجواه صدقات أم لم يقـدموا. وليلاحظ القـارئ الكريم أن الذي نسخ إنما هو خصوص الوجـوب، وأما

PDF Compressor Pro

أصل الطلب فلا، كما يؤخذ من كلامهم وتشعر به عبارات كثير من المفسرين هنا، هذا وقد نص الفقهاء على استحباب الغسل والتطيب وتجديد التوبة لمريد زيارته ﷺ بعد وفاته، تنبيهًا على أنه حي في قبره، وأن حرمته بعد انتقاله للرفيق الأعلى، كحرمته في الدنيا، كما أشار له ﷺ بقوله في الحديث الشريف: «من زارني في مماتي كمن زارني في حياتي»، وهذا أمر مجمع عليه، وقد نشر بساط بحثه في غير هذا المكان.

وهناك فائدة أخرى في تقديم الصدقة والغسل والتطيب عائدة على الزائر لحضرته ﷺ، ومريد مناجاته، وهي إعداد نفسه لمزيد الاستفاضة منه عليه الصلاة والسلام، واستجلاب أمداده النبوية، كما أشار له بعضهم. وذلك لأن في الصدقة وتجديد التوبة إطفاء لغضب الرب، وإضعاف لحب المال الذي هو رأس الخطايا المبعدة للنفوس عن حضرته ﷺ، المانعة لها من الاقتباس من أنواره وكمالاته العلية، وفي الغسل والتطيب إنعاش للروح، وتقوية للقلب، فيزداد تعلقه بروحه الشريفة، ويعظم استمداده منه، واستعداده لتجليه العظيم، جعلنا الله تعالى من أهل محبته ووداده، وأفاض علينا من سحائب كرمه وإمداده. آمين.

PDF Compressor Pro

التفسير

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: صدِّقوا بالله تعالى، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر...إلخ، وإنما آثر وصف الإيمان بالذكر؛ لأنه أس الفضائل، ورأس الكمالات كلها، ولأنه الداعي لامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، الباعث على رعاية حقه ﷺ، والقيام بواجب تعظيمه. والخطاب لأهل السعة المستطيعين، ضرورة أنه لا تكليف لغير المستطيع، كما قال تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾، ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ أي: إذا أردتم مناجاته ومحادثته ﷺ في أي أمر من أموركم المهمة الداعية إلى المناجاة، وغير المهمة لا ينبغي مناجاته فيها أصلاً. ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ أي: فقدموا قبل هذه المناجاة صدقة تتصدقون بها على الفقراء المحتاجين، وقد بين في الحديث الآتي أقل ما يقع به الإجزاء من هذه الصدقة. واختلف العلماء في الأمر المذكور، هل هو للوجوب أو للندب؟ والأول هو المعول عليه؛ لأنه مقتضى صيغة الأمر عند عدم الصارف كما هو المقرر في فن الأصول ولإشعار عجز الآية الكريمة به وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ذلك لا يقال إلا فيما أصله واجب ولأنه هو الظاهر من قوله ﷺ في الحديث الآتي لما نزلت ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾: «خفف الله عن هذه الأمة».

ثم رأى الجمهور أن هذا الوجوب منسوخ، قيل: بفريضة الزكاة، وقيل: بالآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا ﴾...إلخ؛ لأن الآيتين وإن اتصلتا تلاوة فهما متعاقبتان نزولاً، وهذا هو الراجح الذي عليه الأكثر، ويدل له ما أخرجه الترمذي وحسنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، قال: لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ ...إلخ قال لي النبي ﷺ : « ما ترى في دينار؟» قلت: لا يطيقونه، قال ﷺ : «نصف دينار»، قلت: لا يطيقونه، قال: «فكم؟» قلت: شعيرة، قال: فإنك لزهيد، فلما نزلت ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ الآية، قال ﷺ : «خفف الله عن هذه الأمة».

وقد استفيد من هذا الحديث جملة فوائد منها: إن النبي ﷺ هو الترجمان الأعظم لكتاب الله تعالى، المعبر عن مقصوده، المبين لمجمله، وناسخه، ومنسوخه، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤) ومنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يعود أصحابه على الاجتهاد، ويوجه أنظارهم لاستنباط الأحكام الشرعية، ومنها أنه ينبغي للعظيم ألا يستنكف من استشارة بعض تابعيه، والاستئناس بما عندهم من المعلومات فإن الحكمة ضالة المؤمن، وربما أظهر الله تعالى الحق على يد الصغير دون الكبير.

ومنها: أن المريد إذا استشاره شيخه في أمر له تعلق بغيره، فإنه لا ينبغي له أن يسلك جانب التخفيف ما أمكن. وزعم أبو مسلم أنه لا نسخ في هذه الآية، قال: لأن المنافقين كانوا يمتنعون عن بذل الصدقات، وأن قومًا منهم تركوا النفاق، وآمنوا ظاهرًا وباطنًا، إيمانًا حقيقيًّا، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًّا عمن بقي على نفاقه الأصلي، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت.

قال الفخر الرازي في تفسيره بعد هذا الكلام عن أبي مسلم: وحاصله أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء

إلى الغاية المخصوصة، فلا يكون نسخًا، وهذا الكلام حسن ما به بأس، والمشهور عند الجمهور أنه منسوخ ...إلخ. ولم نفهم وجهًا لاستحسان هذا الكلام، فقد روي عن مقاتل بن حيان أنه قال: بقي ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ. وأخرج الحاكم وصححه عن عليّ رضي الله عنه، أنه قال: إن في كتاب الله تعالى لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهمًا: ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ الآية. اهـ.

ومعلوم أن بقاء هذا التكليف مدة عشرة أيام فقط غير كاف في التمييز بين المخلص والمنافق، وأنه إذا لم يعمل بهذه الآية غير علي رضي الله عنه فليس من المعقول أن تكون واردة لأجل ذلك التعبير المزعوم. على أن المنافقين قد كانوا يصلُّون، ويزكون، ويأتون بشعائر الإسلام الظاهرة، حقنًا لدمائهم، وسترًا على أنفسهم، وإذا كان الأمر كذلك فمن البعيد أن يشحوا بتقديم هذه الصدقة، وهي أمر زهيد جدًّا ليفتضحوا وتظهر خبيئة أمرهم.

ولا يخفى أن قول سيدنا عليّ رضي الله عنه في الحديث المذكور: ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، يحتمل أن يكون مراده به انتساخ الوجوب فقط دون أصل الطلب، فلا يعارض ما قررناه آنفًا، على أنه لا يلزم من عدم العمل بخصوص هذه الآية عدم العمل بغيرها من النصوص.

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي: ذلك التقديم المذكور خير لكم لما فيه من إعظام النبي صلى الله عليه وسلم ، ومواساة الفقراء والمساكين، وفي التصريح بـ ﴿ لَكُمْ ﴾ تنبيه على أن منفعة هذا التقديم راجعة إلينا نحن لا إليه صلى الله عليه وسلم ، فإن

قدره المنيف لا يرفعه تبجيل مبجل، ولا يخفضه تقصير مقصر ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لنفوسكم، أي: أزكى لها لما فيه من تعويدها على السخاء، وإضعاف حب المال الموجب لحجبها وحرمانها، وفي هذا إشارة إلى أن طريق تزكية النفس، وتقويم عوجها، وكشف حجاب الغفلة عنها، إنما هي طاعة الله تعالى، وامتثال أوامره، والتعظيم لقدر نبيه ﷺ . ومن كلامهم: من زين ظاهره بالمجاهدة، زين باطنه بالمشاهدة، والله تعالى يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩). ولهذا قال ابن عطاء الله : إن الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات، فمن فاته من الطاعات صنف، أو أعوزه من الموافقات جنس، فقد من النور بمقدار ذلك. ومن هنا يعلم بطلان ما عليه جماعة المتصولحين في هذا الزمن، المتظاهرين بدعوى الولاية ظلمًا وعدوانًا، وما هم منها على شيء؛ لأنهم عشوا عن ذكر الله تعالى الذي تطمئن به القلوب، وأعرضوا عن طاعته عز وجل التي هي مفتاح أبواب الغيوب، فهاموا في الضلالة، وسبحوا في أودية الجهالة .

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم ... وما ظعنوا في السر عنه وقد كلوا

نعوذبالله من المقت والخذلان.

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ ما تقدمونه من الصدقات في وقت من الأوقات، فاكتفوا بالتوبة والاستغفار، واستشعار عظمة النبي ﷺ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فلا يؤاخذكم على مناجاتكم بدون الصدقة؛ إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. وهذا منه تعالى فتح لباب الرجاء أمام العاجزين عن الطاعات الذين لا يجدون ما ينفقونه في الخيرات، وإرشاد لهم إلى التعويل

على سعة مغفرته ورحمته، لئلا يقعوا في اليأس والقنوط فيهلكوا. لكن لا ينبغي لنا مع ذلك أن نتغافل عن الفرق الواضح بين قوله تعالى فيما سبق ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ، وقوله هنا: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ إذ لابد لهذه المغايرة في التعبير من حكمة. والذي يظهر لنا أنها الإشارة إلى فضل القادر على الخير، الموفق لفعله، على العاجز عنه، وإن لم يكن ملمومًا لعدم تفريطه. أو بعبارة أخرى الإشارة إلى تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر. وقد قال ﷺ في وصف النساء «إنهن ناقصات عقل ودين» وعلل نقصان دينهن بتركهن للصلاة والصوم في مدة الحيض، مع أنهن لا اختيار لهن في ذلك ولا قدرة لهن على دفعه. ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي: أخفتم الفقر من أجل ﴿ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ إن استمر الأمر بتقديم الصدقة بين يدي هذه النجوى؟ وهذا عتاب لطيف من الله تعالى لمن وقر في نفوسهم هذا الإشفاق المنافي لحقيقة العبودية، وكمال التفويض، والانقياد إلى الحكيم العليم، لكن لما كان ذلك من الأمور التي تكاد أن تكون قهرية لما جبلت عليه النفوس من حب المال، تجاوز الحق تعالى عنه ، كما قال: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتم به، وشق عليكم المواظبة في المستقبل ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: سامحكم في ذلك وكفاكم مئونة هذا التكليف بنسخه عنكم، وترخيصه لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة، فإذ بمعنى إن الشرطية أو إذ الظرفية للمستقبل، كقوله تعالى: ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ (غافر: ٧١)، وجوابها قوله: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وجملة ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ اعتراضية، وقد استفيد من هذا جواز نسخ الحكم الشرعي لا إلى بدل، وهي مسألة أصولية مختلف فيها، ومعنى ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ أي: داوموا على

PDF Compressor Pro

إقامتها، مع المحافظة على شروطها وآدابها؛ لأنها - متى كانت كذلك- تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتذهب أوضار النفوس ورعوناتها، كما قال ابن عطاء الله: الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب، واستفتاح لباب الغيوب؛ لأنها محل المناجاة، ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق شوارق الأنوار. وقال أيضًا: ليكن همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، ما كل مصل يقيم، وهذا سر تعبير الحق تعالى بقوله: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ولم يقل: فصلوا أي: فحافظوا على حدودها وآدابها مع حفظ أسراركم فيها مع الله تعالى، فلا يختلج بقلوبكم سواه ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي: أعطوها لمستحقيها ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي: ثابروا على طاعتهما في جميع الأوامر والنواهي، الظاهرة والباطنة، حتى تتعود نفوسكم تمام الخضوع والانقياد لهما، فتكمل طهارة قلوبكم، واستنارة بصائركم. يعني أن ميدان العمل متسع، وطرق الخير متعددة، وأنواع القربات كثيرة لم تنحصر في خصوص تقديم الصدقات بين يدي نجواه ﷺ ، ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطنًا؛ لأنه يرى من بواطنكم مثل ما يرى من ظواهركم، فراقبوه تمام المراقبة، وبالغوا في الصدق والإخلاص معه، واحذروا أن يطلع منكم على خلل في نياتكم، أو فساد في أعمالكم.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت، ولكن قل عليّ رقيب

فهذه الجملة الشريفة من أقوى البواعث على الإخلاص وملاحظة المعية التي هي سلم الوصول ومعراج القبول، وفي الحديث: «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان».

جعلنا الله تعالى ممن أخلصوا لحضرته في السر والنجوى.

PDF Compressor Pro

كلمة ختامية

وبعد كتابة ما تقدم بدا لنا أن نختم بكلمة موجزة حول ما ذكره أهل الطريق في موضوع «أدب المريد مع شيخه» كقولهم: ينبغي للمريد دوام ملاحظة شيخه خصوصًا في حالة الذكر، وأن المريد الصادق هو الذي يجعل عدته في السير تعظيم شيخه، فلا يعترض عليه ولا تكون معه إرادة، ولا يزوره إلا وهو على طهارة، ونحو ذلك مما لم يقصدوا به إلا نفع المريد وتهذيب نفسه فقط. ولكن لما خفي مقصدهم هذا على بعض المنتسبين للعلم شنوا الغارة عليهم، ونسبوهم إلى ما هم منه برآء، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ ونحن نقول لهؤلاء المنكرين:

إن أهل الطريق لم يخترعوا هذه الآداب من عند أنفسهم، ولم يضعوها عبثًا ولا قصداً للرياسة ومحبة التعظيم (حماهم الله تعالى من ذلك) وإنما فهموها استنباطًا من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ كقوله تعالى في الآيات السابقة ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ ...إلخ ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ ...إلخ ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ إلى غير ذلك.

وذلك لأن الأساتذة المربين هم العلماء العاملون، الذين هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنص الحديث المشهور «العلماء ورثة الأنبياء». ومن المعلوم أن الوارث يعطي حكم مورثه في الجملة، وإليه

PDF Compressor Pro

الإشارة بقوله ﷺ فيـما رواه الشيخان وغيرهما «ومن يطع الأمـير فقد أطاعني ومن يعص الأمـير فقـد عصاني» ولا يسـتحق الرجل عندنا مـقام الوراثة الحقيـقية إلا إذا صدق مع الله تعالى في أقواله، وأفـعاله، وأحواله وسائر خواطره ونياته، بحيث لا يكون له باعث في حركة، ولا سكون إلا رضا الحق تعالى، ومـلاحظة وجهه الكريم، حتى المبـاحات لا يتناولها إلا بنية صالحة تجعلها قربة كقصد إقامة البنية والتقوى على طاعة الله تعالى، ونحـو ذلك، ومتى كـان بهذه المناسـبـة فقـد صار مـرآة لتجلي الأخـلاق المحمدية، فيجب له من الاحترام والتعظيم، طرف مما يستحقه مورثه عليه الصلاة والسلام .

على أنه لا غــرض لأهل الطريق من وضع هذه الآداب إلا تـعـويد المريد على الآداب مع الله تعالى ورسوله، ووجهه: إن الغالب على المريد في مبدأ أمره كثافة الحجب النفسانية، والركوض في ميدان الغفلة، وعدم التأثر إلا بالمشـاهد المحسوس، فألزموه بـالتأدب مع شيخه، ليـجعلوا هذا وسـيلـة إلى الأدب مع ربه بأن يتـرقى من الخـضـوع لأحكام شـيـخـه والاستـسلام لأوامره، وعـدم الاعتراض عليـه، وملاحظته إياه في عـموم أوقاته، إلى مراقبة الله تعالى، والخضوع لأحكامه العلية، وعدم الاعتراض عليه جل وعلا في أقضيته ومـقاديره، حلوة كانت أو مرة، فمثل الأساتذة المربين كمـثل الجند الذين يقومـون بتدريب العسكر على الـنظام والطاعة ويمرنونهم على الحركات العسكرية، ليجـعلوا ذلك كله وسيلة لاحترامهم لمن هم فـوقهم مـن الرؤساء والقـواد وخـضوعـهم لأوامـرهم في السلم والحرب.

PDF Compressor Pro

وهل الأولياء إلا بعض جنود ربك؟ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١) الواقفون على باب حضرته، الذين لا يفترون عن ذكره تعالى، إما بألسنتهم وقلوبهم معًا، أو بقلوبهم فقط، فهم جلساء الله تعالى على الدوام لقوله في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني» فالتأدب معهم إنما هو تأدب مع من هم جلساؤه في الواقع، ومعاذ الله تعالى أن يكون مقصدهم حب الرياسة والتعظيم؛ بل مقصودهم الأعظم، وغرضهم الأسمى، إنما هو إجلال الله تعالى، ومراقبته في السر والإعلان، وما اعترض المعترضون عليهم إلا من جهلهم بأحوالهم، وعدم الوقوف على مداركهم.

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًا به الماء الزلالا

رزقنا الله تعالى مزيد التعلق بجنابه، وحفظنا من الوقيعة في عرض أحبابه.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ صدق الله العظيم

من سورة عبس [١-١٦]

من أعوام كثيرة والفقير مشتغل بتفسير كتاب الله تعالى قراءة للإخوان والمحبين، ولما وصلنا بالأمس إلى سورة «عبس وتولى» وألهمنا الله تعالى إبداء مجمل لهذه الآيات الكريمات، استحسنه كثير من إخواننا الأفاضل ورأوه اللائق بحضرة النبي ﷺ مع كونه لا يتنافى مع التنزيل الحكيم، وطلبوا إلينا تلخيصه ونشره بمجلة «الإسلام» الغراء تعميمًا للنفع به، فلم نر بدًا من إجابة طلبهم، ومن الله تعالى نستمد المعونة والتوفيق فنقول:

اتفق المفسرون على أن سبب نزول هذه الآيات قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه وهو ابن خال السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، واسمه عمرو بن قيس، وقيل: عبد الله بن عمرو، وكان أعمى، قيل: ولد كذلك، وقيل: عمي بعد نور، أتى النبي ﷺ وعنده صناديد قريش: عقبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل

PDF Compressor Pro

والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله أقرئني، وعلمني مما علمك الله تعالى، وكرر ذلك، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه فنزلت.. والواقف على هذه القصة لا يسعه أن يتهم النبي ﷺ بصدور ما يستوجب المؤاخذة والعتاب مطلقًا، فإن تصديه ﷺ لصناديد قريش في هذه الحالة، وحرصه على هدايتهم وانتشالهم من الكفر وهو يرجو أن يسلم بإسلامهم كثير من أتباعهم وذويهم، وإعراضه عن ابن أم مكتوم وهو من المسلمين الأولين ليس إلا اشتغالاً بما هو الواجب من إيثار المصلحة العامة وتقديم الأهم على المهم. وإنما المستحق للمؤاخذة والعتاب هو ابن أم مكتوم من عدة وجوه- أولاً: لأنه دخل على النبي ﷺ وطلب منه القراءة والتعليم بدون استئذان، وهذا لا ينبغي مع عامة العلماء فضلاً عن سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وثانيًا: لإقدامه على قطع كلام النبي ﷺ وإيذائه بذلك، وهذا أمر يشوه سمعة المسلمين عمومًا ويحط من منزلته ﷺ في نفوس أعدائه.

وثالثًا: لكونه حاول أن يشغل النبي ﷺ بما لا أهمية له وقتئذ والحال أنه مشغول بما هو من الأهمية بمكان.

ورابعًا: لكثرة إلحاحه في السؤال حتى أن النبي ﷺ - كما جاء في بعض الروايات- أشار إلى قائده بأن يكفه عنه حتى يفرغ من كلامه مع القوم، فكفه القائد فدفع هو القائد واستمر في الإلحاح وطلب السؤال.

وقد كان ﷺ حليمًا لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى، والأمر كذلك هنا، فإنه ما عبس ولا امتعض من ابن أم مكتوم إلا

لما ارتكبه من هذه الأخطاء المتعددة، ومن العجيب هنا أن يتبرع المفسرون بالدفاع عن ابن أم مكتوم فيؤولوا ما صدر منه، ويلتمسوا له المعاذير بنحو قولهم: إنه لم يعلم تشاغل النبي ﷺ بالقوم، ويهملوا الدفاع عن سيد الخلق ﷺ بالكلية الذي هو أحرى بذلك وأولى، وغاية ما سمحت به أنفسهم أنهم قالوا: إن عتابه عليه الصلاة والسلام لم يكن بالنظر لظاهر الشرع، وإنما كان بالنظر لما علمه الله تعالى من عدم إسلام من تصدى إليهم وطردهم من رحمته عز وجل.

وهذا كلام غير مُسلَّم به فإن ابن أم مكتوم قد أعطاه الله تعالى من قوة السمع ما يغني عن البصر - كما قالوا - على أن القائد كما في الرواية المتقدمة أعلمه بذلك وكفه حتى يفرغ النبي ﷺ من تشاغله فلم ينكف.. قالوا: أخذته الدهشة بقدومه على رسول الله ﷺ، ولاشك في أن جلاله وجماله يدهش العقول، ولاسيما بالمحب المشتاق والراغب في التعليم.. وهذا أيضًا مما لا يدخل تحت طائل فإنه لو أخذته الدهشة - كما زعموا- لمنعته الكلام رأسًا كما وقع من الأعرابي الذي دخل على النبي ﷺ فأخذته الرعدة من مهابته فقال له: «هون عليك يا أخا العرب فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». وعتاب النبي ﷺ على ما في علم الله تعالى لا يصح، فإنه عليه الصلاة والسلام ما أمر إلا بإجراء الأحكام على الظاهر وعدم النظر إلى الحقيقة التي استأثر الله تعالى بعلمها، وإلا فهل الواجب عليه ﷺ قبل دعوة أي شخص إلى الإسلام أن ينظر إلى اللوح المحفوظ فإن رآه ممن سبقت له السعادة دعاه وتصدى لهدايته وإلا تركه وأعرض عنه؟

ونحن لا نعيب على المفسرين تبرعهم بالدفاع عن ابن مكتوم والتماسهم له المعاذير، وإنما نعيب عليهم إهمالهم الدفاع عن النبي ﷺ

PDF Compressor Pro

الذي يجب تنزيه ساحته عن كل ما يؤدي إلى الطعن والغمز ولو من وجه بعيد، كيف والقدح في ذاته الكريمة قدح في أصل الدين الذي جاء به، وخدش في مكارم الأخلاق التي بعث ليتممها، والله جل ذكره يقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟

والأدهى من ذلك قولهم: إنه ﷺ بعد نزول هذا العتاب - في رأيهم- ما عبس في وجه فقير قط، ولا تصدى لغني قط، ما معنى هذا الكلام؟ إن النبي ﷺ أجل وأطهر من أن يعبس في وجه فقير لفقره، أو يتصدى لغني لأجل غناه، سواء بعد نزول هذه الآيات وقبل نزولها، وذلك لأن احتقار الفقراء لفقرهم، وتعظيم الأغنياء لغناهم من أشنع الرذائل التي لا يقبل الاتصاف بها أحد المتطفلين على موائده المحمدية عليه الصلاة والسلام، فكيف يسوغ إلصاقها بذاته الشريفة، وأما التعبيس في وجه الفقير إذا أساء، والتصدي للغني لمصلحة شرعية، فهذا أمر لازم لا يصح نفيه عنه ﷺ ، ولا عن أحد من المهتدين بهديه، والله تعالى لم يبعثه للفقراء فحسب، وإنما بعثه للناس كافة فقرائهم وأغنيائهم، وقد كانوا يتفاضلون عنده ﷺ ولكن لا بالمال قلة وكثرة؛ بل بالتقوى وعمل الصالحات.

وقد احتج المفسرون على أن الآيات المذكورة قد نزلت عتابًا للنبي ﷺ ، بما روي من أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول له إذا قدم عليه بعد نزولها: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي» والجواب سهل، فإن هذه الرواية لم يصح سندها؛ بل لم يذكروا لها سنداً من أصله حتى تنهض

حجة في مثل هذا المقام، وأما قولهم إنه ﷺ كان يكرمه ويبسط له رداءه الشريف ويجلسه عليه ويقول له: ألك حاجة؟ فهذا دأبه عليه الصلاة والسلام المستمر معه ومع غيره، فقد كان ﷺ عظيم الإكرام لمن يدخل عليه، بليغ الحفاوة لمن يؤمه ويقصد ساحته، ويبسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى.

وعلى هذا فلا يصح أن يكون قول الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ...إلخ وارداً مورد العتاب له ﷺ لعدم صدور ما يوجب ذلك، والله تعالى أجل من أن يعاتب حبيبه من غير موجب.

ومما يشهد بصحة ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ مع أن العبوس في الحقيقة لم يكن لمجرد مجيئه؛ بل لمقاطعته وإيذائه للنبي ﷺ الذي له حق الرعاية والتأديب عليه وعلى غيره، وحيث استحال حمل هذه الآيات الكريمات على المعاتبة والتقريع له ﷺ كما بينا، لم يبق إلا أن تحمل على أنها حكاية عما جال بخواطر المشركين وتحدثوا به في أنديتهم: والمعنى: يقول المشركون سخرية واستهزاء بالنبي ﷺ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ أي: عبس محمد ﷺ وأعرض لمجيء الأعمى احتقاراً وازدراء له، وتزلفًا إلى الأغنياء وطمعًا فيما عندهم من المال والجاه العريض ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أي: وما يدريك يا محمد لعل هذا الأعمى الذي أعرضت عنه وازدريته يتطهر من الذنوب، أو يتعظ بما يسمعه منك من القرآن والحكمة فتنفعه الذكرى، ثم فصلوا هذا الإجمال زيادة في الإنكار ومبالغة في التشنيع ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ

PDF Compressor Pro

﴿ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أي: أما من استغنى عنك يا محمد بماله وجاهه فأنت له تتعرض وتقبل، وما عليك ألا يتزكى هذا المستغني عنك، إن عليك إلا البلاغ، وأما من جاءك يسعى للخير، ويرغب فيه وهو يخشى الله تعالى فأنت عنه تتشاغل وتتلهى، وهذا نهاية ما قالوه وتمشدقوا به فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ أي: ارتدعوا وانزجروا عن هذه المقالة الشنعاء أيها الكفار والمعاندون، فما كان محمد ﷺ ليحتقر فقيراً لفقره أو يتصدى لغني لأجل غناه، حاشاه من ذلك ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: الحالة والفعلة التي صدرت من النبي ﷺ من إعراضه عن ابن أم مكتوم وامتعاضه مما وقع منه مع كونه من أصحابه ومن أقرباء زوجته، ومن تصديه لأولئك الصناديد الذين هم وجوه قريش وقادة الرأي فيهم، وعدم مهابته لهم وخشية بأسهم تذكرة للخاص والعام ينتفع الناس بها إلى يوم القيامة، ألهمها الله تعالى لحبيبه وقذف في قلبه وهي في صحف مكرمة...إلخ.

وهذا نظير ما حكاه الله تعالى في أمر القبلة بقوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(البقرة: ١٤٢).

وذلك أن النبي ﷺ وهو بمكة كان يصلي للكعبة، فلما هاجر للمدينة أمر باستقبال بيت المقدس تأليفًا لليهود، فصلى له سبعة عشر شهراً، وكان عليه الصلاة والسلام يشم منهم الكِبر؛ لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً يفارق ديننا ويصلي لقبلتنا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يصلي للكعبة، حتى كان كثيراً ما ينظر إلى جهة السماء متطلعًا إلى الوحي ومتشوقًا للأمر بذلك؛ لأن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم؛ ولأن ذلك أدعى إلى إسلام العرب، فاعترض

اليهود والمشركون عليه ﷺ وعلى أصحابه في هذا الموضوع، فقال المشركون: ما صرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها أولاً وهي الكعبة؟ وقال اليهود: ما صرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ثانيًا وهي بيت المقدس؟ وألقى البعض شبهة في ذلك ليصد بها الضعفاء عن دين الله تعالى، وهي أن الاستقبال لبيت المقدس لا يخلو إما أن يكون هدى فالانتقال منه إلى الكعبة ضلال، وإما أن يكون ضلالاً فالتوجه إليه قبل ذلك كان ضلالاً.

فتولى الله تعالى الرد على الفريقين بعد أن حكى ما صدر عنهم- بقوله: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: قل لهم يا محمد: لله الجهات كلها فيأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء فلا اعتراض عليه، ثم بين الحكمة فيما حصل من التحويل بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (البقرة: ١٤٣) أي: وما صيرنا قبلتك الآن القبلة التي كنت عليها أولاً وهي الكعبة إلا امتحانًا نظهر به من يتبع الرسول فيثبت على تصديقه ممن يرجع إلى الكفر شكًّا في الدين وظنًا أن النبي ﷺ في حيرة من أمره، وقد ارتد لذلك جماعة.

فكذلك الأمر هنا: لما تصدى النبي ﷺ لصناديد قريش يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام حرصًا على هدايتهم، ورجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، وقد دخل في هذه الحالة ابن أم مكتوم محاولاً أن يصرفه عما هو فيه، ويشغله بأمر لم تمس إليه الحاجة الآن، ولا ضرر في إرجائه إلى وقت آخر، مكرراً النداء على النبي ﷺ ، غير مقدر خطورة ما هو بصدده، كره النبي ﷺ منه هذه المقاطعة وهذا الإيذاء ومع ذلك فقد رأف به ولم

يصارحه بالعتاب والتوبيخ في حضرة القوم، ولكن المشركين والمنافقين قد أوَّلوا هذه الواقعة تأويلاً فاسداً، وحاولوا أن يستغلوها استغلالاً سيئًا، ويوقعوا في أذهان الضعفاء أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك حرصًا على المصلحة الدينية العامة؛ بل لحاجة في نفسه وطمعًا في استمالة قلوب القوم ليستمتع بما لديهم من جاه ومال، فحكى الله تعالى عنهم ذلك، ورده عليهم أبلغ رد ليبين لهم ولغيرهم أن النبي ﷺ بعيد كل البعد عما وصموه به زوراً وبهتانًا، ونسبوه إليه ظلمًا وعدوانًا، كيف وهو الغني بسيده عن كل ما سواه:

وراودته الجبال الشم من ذهب

عن نفسه فأراها أيما شمم

والخلاصة أن النبي ﷺ لم يقع منه حرام ولا مكروه ولا خلاف الأولى، ولا صدر منه مطلقًا ما ينافي مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب؛ بل ما فعل إلا ما هو الواجب من تقديم الأهم على المهم، وما عبس وغضب وأعرض عن ابن أم مكتوم إلا لإقدامه على قطع كلامه، وعدم اكتراثه بما هو فيه لا لكونه أعمى ولا لمجرد مجيئه، فلو جاء وجلس ساكتًا عاملاً بإشارته ﷺ بذلك حتى يفرغ من كلامه ما حصل منه عبوس ولا إعراض، والله سبحانه وتعالى ما أنزل تلك الآيات الكريمات عتابًا له عليه الصلاة والسلام أو استهجانًا لما فعل، وإنما أنزلها حكاية عما جال بخواطر المشركين وتحدثوا به فيما بينهم، وإثباتًا لنزاهته ﷺ عن أن يكون له في غير مولاه حظ، أو يقع منه لسواه لحظ، في عموم أوقاته وأحواله، رزقنا الله تعالى مزيد اتباعه، وجعلنا من خواص أتباعه وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ صدق الله العظيم

سورة الطارق [١ – ١٨]

هذه السورة مكية بلا خلاف، ووجه مناسبتها للسورة التي قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها حال الكفار وما هم عليه من التكذيب والإنكار للقرآن الكريم، وما جاء به من أمر البعث والجزاء، ناسب أن يذكر هنا بيان أصل هذا الإنسان المكذب ومادة خلقه لينبهه إلى ضعفه وحقارته، وليرشده إلى أن الإله الذي قدر على خلقه من ماء دافق، وقلبه في أطوار مختلفة وجعله بشراً سويًا، ولم يعي بذلك قادر على إعادته بعد الموت ليوفيه جزاء عمله، وما قدمت يداه، ثم ذكر بعد ذلك

PDF Compressor Pro

حال القـرآن الكريم، وأنه فصل ليس بالهزل، مـقسمًا على ذلك بالسـماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع ليربي المهابة له في القلوب، ويغرس له المحبـة والتـعظيم في الصدور، وليـشعـر الكفار المكذبين بـأن ما ورد فـيه خاصًّـا بهم من القوارع والزواجر حق لا يـتخلف، وأمر واقع بهم لاشك فيه ولا ارتياب إن لم يقلعوا ويتوبوا.

وهناك مناسبـة أخرى، هي أن الله تعالى لما ذكر في السـورة السابقة إحاطته بهؤلاء الكفار المكذبين، وقدرته عـليهم، وعلمه بجميع أحوالهم، ناسب أن يقيم لهم في هذه السورة الـكريمة، الدليل الدال على صحة هذا المدعى، فإن من قـدر على خلق السمـاء وما فـيها من الكواكـب والنجوم الثـواقب، وعلى خلق الإنسـان من مـاء دافق يخـرج من بـين الصلب والترائب، كـيف يعجـز عن أن يكون حافظًا على العـباد، مـهيمنًا عـليهم محيطًا بكل ما يصدر منهم من حسن أو قبيح؟ فقال عز شأنه وهو أصدق القـائلين : ﴿ وَالسَّمَـاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ...إلخ ولعمري إن فـي الإتيان بهذا القسم، وأمثاله في القرآن كثيرة، لدليلاً واضحًا على عظم جحود الإنسان وقسوة قـلبه وشدة غفلتـه، وفرط نسيانه لمبـدئه، وما خلق لأجله من شكر المنعم، والاعتـراف بعظيم سيطرته وباهر سلطانه، لذلك اقتـضت الحكمة لفت نظره إلى السماء والأرض والشمس والقـمر والنجوم إلى غير ذلك من آياته تعالى في الأنفس والآفاق ليتأمل في أحـوالها وأشكالها وسيرها ومطالعـها ومـغـاربها حـتى يتوصـل بذلك إلى معـرفة صـانعـها القـدير ومبدعها الحكيم، فإن الأثر يدل على المؤثر، والصنعة تدل على الصانع.

وفـي كـل شـيء لـه آيـة تـدل عـلى أنـه الـواحـد

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤). آيات مختلفة ومتنوعة؛ خذ مثلاً: اختلاف الليل والنهار بالقصر والطول والحر والبرد، والظلمة والنور، والحركة والسكون، كم في ذلك من آيات يعتبر بها المؤمن الصادق حتى لا تبطره العطية بطلوع فجرها وامتداد نهارها، ولا تيئسه البلية بهجوم ليلها واعتكار ظلامها؟ ثم إن الاستدلال بهذه الآثار إنما هو شأن المحجوبين وحال الغافلين؛ لأن المشاهد غني بالشاهد عن إقامة الأدلة ونصب البراهين.

هذا والمراد بالسماء هنا المعروفة كما عليه الجمهور، أي: جنس السماء الشامل لكل سماء. أقسم الله تعالى بها لما فيها من العجائب الجمة والنعم العظيمة، حيث إن الله تعالى خلقها بلا عمد، وجعلها سقفًا محفوظًا لأجل الإنسان، وأطلع فيها النيرين لأجله، وأسكن فيها ملائكته الكرام لأجله؛ إذ منهم الموكل بنزول الوحي على الأنبياء لأجله، ومنهم الموكل بالمطر لأجله، ومنهم الموكل بالريح لأجله؛ ومنهم الموكل بكتابة الأعمال لأجله، فالكل لأجله. وهو مخلوق لخدمة ربه وطاعة مولاه، فإن اشتغل بذلك أخدمه جميع الكائنات، وإلا سخره وأذله لأحقر المخلوقات.

وقيل: المراد من السماء هنا المطر كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ولكن ذكر الطارق بعده يبعده .

﴿وَالطَّارِقِ﴾ هو في الأصل كل ما يطرق ليلاً، والمراد به هنا النجم الثاقب كما بينه تعالى فيما بعد، أقسم الله به تفخيمًا لشأنه وإرشادًا إلى النظر في أمره ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ هذا مبالغة في تعظيم الطارق، وليس المقصود منه نفي الدراية عنه ﷺ حقيقة فإنه تعالى يعلم أنه لا يدريه. ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء لثقبه الظلام بضوئه. والمراد جنس النجم، فيشمل كل نجم، وقيل: المراد الثريا، وقيل: زحل، وقيل غير ذلك.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قرئ بتشديد لما وتخفيفها، وعلى الأول بمعنى إلا و(إن) نافية أي: ما كل نفس من النفوس الإنسانية وغيرها إلا عليها حافظ. وعلى الثاني فاللام فارقة وفاصلة، وإن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف، أي: إن الحال والشأن كل نفس عليها حافظ، وهذا هو المقسم عليه، واختلف في المراد بهذا الحافظ فقيل: هو الله تعالى؛ لأنه المهيمن الرقيب على جميع العباد، القائم على كل نفس بما كسبت، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩)، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧)، ودوام الملاحظة لهذه المعية هو المسمى بمقام المراقبة، وهو أحد مقامي الإحسان المذكورين في قوله عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل المشهور: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهي على قسمين: وهبية بمحض فضل الله

PDF Compressor Pro

تعالى من غير تسبب ولا اكتساب، وهذا نادر قليل. وكسبية وهذا هو الغالب الكثير. والطريق في اكتسابها أن يواظب الإنسان على ذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، ويحافظ على الآداب الشرعية في مأكله ومشربه وملبسه ونومه وقيامه وقعوده وسائر أحواله وتصرفاته، مع المبالغة في حفظه لخواطره وأنفاسه، واستشعار أن الله تعالى مطلع عليه ويراه.

قال المحاسبي: أول المراقبة علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وعنه أيضًا: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من الله عز وجل. ومتى غلبت المراقبة على العبد، واستولت على قلبه، فلا يمكنه أن يعصي الله تعالى معصية حقيقية، ومنه الحديث الشريف: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...»إلخ ، وإنما تكون معاصيه صورية فقط.

وقيل: المراد هم حفظة الأعمال من الملائكة، قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الانفطار: ٩-١٢)، وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٧،١٨)، وقيل: المراد حافظ من الآفات والعاهات كما في قوله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١) وهم عشرة بالليل وعشرة بالنهار لكل مكلف، فإن كان مؤمنًا وكل الله تعالى به مائة وستين. فعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين». ولما كان في وجود

الحفظة على الإنسان نوع من الغرابة خصوصًا مع ما ورد من صفة الكاتبين وجلوسهما فوق الناجذين من داخل الفم، والإنسان لا يراهما ولا يشعر بهما، أقسم الله تعالى على إمكان ذلك وصحة وجوده بهاتين الآيتين الكونيتين العظيمتين: السماء والنجم الثاقب ليفحم المستبعدين له ويلزمهم الحجة، فإن من قدر على خلق الأجرام العظيمة، ورفع سمكها وتسويتها وإحكام صنعها لا يستعصي على قدرته إيجاد هذين الحافظين الكريمين على الإنسان، وإجلاسهما على ناجذيه أو ما شاء من جسمه والله على كل شيء قدير. ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أمر الله -جل شأنه- الإنسان بالنظر في أصله ومبدأ خِلقه ليعرفه قيمة نفسه وحقيقة ذاته، وأنه مخلوق ضعيف خلق من ماء مهين، ولا يليق به التكبر والتجبر، ولينبهه على أن من قدر على خلقه مما ذكر قادر على إعادته بعد الموت، وذلك لأن الإنسان إنما طغى وبغى وتكبر وتجبر وأحال الإحالة بعد الموت، من نسيان مبدئه وغفلته عن أصل منشئه، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩). والمعنى: فلينظر الإنسان بعين قلبه نظر تدبر واعتبار ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: من أي شيء ومن أي مادة خلقه الله تعالى وصوره فأحسن صورته؟ ثم استأنف تعالى لبيان جواب هذا الاستفهام فقال: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي: مدفوق ومصبوب من الرجل والمرأة في رحمها، أي: خلقه الله تعالى من هذا الماء القذر المهين، بأن جعله نطفة في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، فخلق العلقة مضغة، فخلق المضغة عظامًا، فكسا العظام لحمًا، ثم أنشأه بنفخ الروح فيه خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

نطفة قذرة يجعل الله تعالى منها لحمًا ودمًا وعصبًا وعظمًا وعروقًا، ويجعل منها لسانًا ينطق، وعينًا تبصر، وأذنًا تسمع، وأنفًا يشم، ويدًا تبطش، ورجلاً تمشي، ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ثم يخرج الله تعالى من الفم ماء عذبًا، ومن الأنف ماء حامضًا، ومن العين ماء ملحًا، ومن الأذن ماء مرًا، والكل من مادة واحدة، وهي النطفة، وفي موضع واحد هو الرأس. فسبحان الخلاق العليم.

ويؤثر عن علي ﷺ وكرم الله وجهه: ما لابن آدم والفخر، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وما بينهما هو حامل للعذرة. نعم وقد جرى في مجرى البول مرتين، ومكث تسعة أشهر في بطن أمه وهو محاط بالأقذار، ولبث بعد ذلك عشرة أشهر يبول ويتغوط على نفسه لا يملك لها نفعًا ولا يدفع عنها ضررًا. ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾!! وإنما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ مع أن الإنسان مخلوق من ماءين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأنهما لما امتزجا واختلطا صارا ماءً واحدًا ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ ﴾ وهو عظام الظهر، أي: من بين أجزاء الصلب ﴿ وَالتَّرَائِبِ ﴾ أي: من بين الترائب، جمع تريبة وهي عظام الصدر أو موضع القلادة من الصدر، وقيل: ما بين الثديين. وعن ابن عباس ﷺ أنها أطراف المرء يداه ورجلاه وعيناه. وقيل: غير ذلك. والظاهر أن المراد يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائب كل منهما، وأن ذكر الصلب والترائب كناية عن البدن كله كما يشير إليه قول ابن عباس المتقدم. وكتب فضيلة مولانا الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف رحمه الله تعالى ما نصه: والمفهوم من هذه الآية الشريفة أن ذلك الماء يخرج من بين أجزاء صلب

PDF Compressor Pro

كل رجل أي ظهره، ومن بين ترائب كل امـرأة، أي: عظام صدرها، جمع تربيـة، كمـا روي ذلك عن سفـيان وقـتادة، أو يخـرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائب كل منهـما كما روي عن الحـسن وقتادة. قيل: ذلك دلالة على أن من قدر على إنشـاء الإنسان من هذا الماء الخارج من داخل هذا الداخل المنيع قـادر على إعادته من أجزاء مـبثوثة في قـبور مدثورة.

قـيل: وخص ما بين الصلب والتـرائب مع أن مـستـقر المني عـروق يلتف بعضها ببعض عند الخصيـتين تسمى أوعية المني، وأن معظم أجزائه إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع وينفصل عن جميع أجزاء البدن، فيأخذ من كل عضو طبيعته وخاصتـه مستعداً لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء، كمـا ذهب إليه بعض الأطباء؛ لأن أعظم الأعـضاء معـونة في توليد المني الدماغ وخليـفتـه النخاع في الصلب وشـعب نازلة إلى مقـدم البدن وهي التريبة، فلذا اختصا بالذكر، وإن كان مقـر أجزاء مني المرأة مبيضها، ومقر أجزاء مني الرجل خصـيته، ولو جعل مـا بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد وكـأن تخصيصها بالذكر لما أنـها كالوعاء للقلب الذي هو كالمضغة العظمى فيه، وإلا فالنخاع والقوى الدماغية والقلبية والكبدية كلها تتعـاون في إبراز ذلك الفضل على ما هو عليه قابلاً لأن يصـير مبدأ الشخص، ولذا قيل: إن تصحيح الأعضاء الرئيـسية موجب لقوة الجماع؛ لأن شدة الإحـساس باللذة من صـحة الدماغ، وقـوة الانتشار من صـحة القلب، وكثرة المـاء في الكبد، والاعتدال من صحـة الكلى، وخروج المني من الأصـلاب والترائب أو من بينهـا وبين التـرائب لا ينفي خروجـه من

غيرها، وقد علمت وجه تخصيصها بالذكر؛ لأن خروج السائل من العظام الصلبة معجز وخصوصًا إذا نظر لما اشتمل عليه من الحيوانات المنوية، والبويضات الجرثومية فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ (البقرة: ٧٤)، وكقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ (يس: ٨٠)، وكقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة: ٧) أي: إن الذي بدأ خلق هذا الهيكل المخصوص الذي هو خلاصة عالم المواد والصور، الجامع لعوالم الملك والملكوت من هذا الماء قادر على إعادته، فالمعجزة في الآية من مكانين: خلق الإنسان، أي: هذا العالم الجامع من ماء ضئيل، وخروج هذا الماء وما اشتمل عليه من أسرار التكوين من بين الصلب والترائب. وبالجملة فعبارة الكتاب مختصرة جامعة، وكلام الله المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد اهـ. من رسالته المسماة بالمطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية، وهي رسالة نفيسة جدًّا. حفظ الله تعالى مؤلفها وجزاه خير الجزاء.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ أي: رجع الإنسان وإعادته بعد الموت للحساب ولو تفرقت أجزاؤه أو أكلته السباع أو حرق وسحق وذري في الهواء ﴿لَقَادِرٌ﴾ أي: بيَّن القدرة تامها ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ليس متعلقًا بقادر لإيهام اختصاص قدرته تعالى بوقت دون وقت مع أنه قادر في جميع الأوقات، وإنما هو متعلق برجعه المذكور أو بمحذوف يدل عليه، أي: يرجعه تعالى ويعيده يوم تبلى السرائر، وهو اليوم الموعود. وتأخير الإعادة إلى هذا اليوم لا لعجزه سبحانه عن الإعادة قبل ذلك؛ بل لما سبق في علمه القديم من

PDF Compressor Pro

التوقيت بهذا الوقت، إذ الأشياء مرهونة بأوقاتها لا يستأخر شيء منها عن وقته ساعة ولا يستقدم. وما من كائن إلا وقدر الله تعالى زمن وجوده والكيفية التي يوجد عليها. ومن كلام العارف ابن عطاء الله: ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أراده الله تعالى فيه. أي: لأن في ذلك تحكمًا على إرادة الحق -عز وجل- وإساءة أدب مع حضرته العلية مع كونه لا ينفع ولا يفيد، فإنه لو اجتمعت الإنس والجن والملائكة وسائر المخلوقات على أن يقدموا شيئًا أو يؤخروه عن وقته المحدود له في علمه تعالى لا يستطيعون ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فإذا قضى الله تعالى أن الشمس مثلاً تطلع في وقت مخصوص فمن ذا الذي يستطيع أن يطلعها قبل هذا الوقت بدقيقة أو يؤخرها عنه دقيقة؟ فاعتبر أيها المؤمن بذلك ولا تستعجل شيئًا قبل أوانه ولك في أمر الشفاعة العظمى يوم القيامة تبصرة وتذكرة، ألا ترى أنه قبل مجيء الوقت المعلوم لفتح بابها كيف يحار الخلائق ويضطربون فلا يهتدون سبيلاً إليها؟ فإنهم يأتون آدم صلوات الله عليه فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم -عليه السلام- فيعتذر عنها، ثم موسى، ثم عيسى -عليهما السلام- كذلك حتى إذا جاء الوقت، وأراد الله تعالى فصل القضاء بين الخلائق هداهم إلى صاحبها والفاتح لبابها، فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له كما ورد في الحديث.

ومعنى ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر وتكشف القلوب ويتضح ما أسر فيها من العقائد والنيات. وعلى هذا فالسرائر هي القلوب، ويحتمل أنها التكاليف قاطبة فإنها سرائر بين العباد وربهم، ومعنى ابتلائها: تفحصها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث، وما صلح منها وما فسد

PDF Compressor Pro

ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. وأخرج ابن المنذر عن عطاء ويحيى بن أبي كثير في تفسير السرائر هنا أنها الصوم والصلاة والغسل من الجنابة. وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ضمن الله تعالى خلقه أربعًا: الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان. والغسل من الجنابة، وهي السرائر التي قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾» وليس مراده عليه الصلاة والسلام حصر السرائر في هذه الأربعة؛ بل بيان أعظمها وأهمها وما هو كالأصل والأساس لغيره، وقد سمع الحسن من ينشد قول الشاعر:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

فقال: ما أغفله عما في ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وكأنه رضي الله عنه حمل البقاء في هذا البيت على عدم التعرف أصلاً، أي: إنه سيبقى لها في مضمر القلب سريرة ود لا تتعرف ولا يطلع عليها في هذا اليوم الذي تكشف فيه جميع السرائر وتظهر سائر المخبآت. ويحتمل أن يكون الشاعر أراد أن يبين أنه صادق المحبة ثابت الود لا يسلو محبته ولا يترك مودته في الحياة وبعد الممات حتى يوم تبلى السرائر، يوم يشتغل كل امرئ بنفسه ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه على عادة الشعراء من المبالغة والإغراق ﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: فما لهذا الإنسان المكذب في هذا اليوم الذي تبلى فيه السرائر وتنكشف الضمائر؛ وتظهر القبائح والفضائح، ويقف الناس بين يدي مولاهم فيوقفهم على أعمالهم ويحاسبهم على الفتيل والقطمير. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)

PDF Compressor Pro

ليس لهذا الإنسان في ذلك اليوم العصيب ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ شخصية يدفع بها عن نفسه ويمتنع عن عذاب ربه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ من غيره ينصره ويحتمي فيه؛ إذ لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨،٨٩)، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢). وهذا لا ينافي وجود الشفاعة يوم القيامة من النبي ﷺ وغيره من الأنبياء والعلماء؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمن أذن له الرحمن وقال صوابًا، والكافر لم يقل صوابًا ولم يمت على الشهادتين حتى يأذن الله تعالى في شفاعة أحد له.

ولما كان نزول المطر من السماء إلى الأرض شبيهًا بنزول الماء من صلب الرجل إلى رحم المرأة، وكان خروج النبات من جوف الأرض محاكيًا لخروج الجنين من بطن أمه، وتنقله في أطواره المختلفة إلى أن يكون حصيداً فوق الأرض، ثم هشيمًا تذروه الرياح كتنقل الولد من طفل إلى صبي إلى غلام إلى كهل إلى شيخ إلى أن تحصده المنية بمنجلها، فضلاً عما بينهما سوى ذلك من التشابه المحكم الوثيق؛ إذ كما يختلف عمر النبات بعد خروجه من الأرض طولاً وقصراً فتارة يذبل ويموت صغيراً، وتارة يبقى إلى أن ينمو ويترعرع فتقصفه الريح أو تأكله الأنعام، وتارة يبقى إلى أن يستوي ويتم نضجه فتقتلعه الأيدي أو تحصده المناجل، كذلك الإنسان تارة يموت عقب ولادته، وتارة يموت وهو ابن سنة أو سنتين أو ابن عشر أو عشرين، ومهما امتد أجله وطال عمره فلابد أن يموت ويصير نسيًا منسيًّا، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره. وأيضًا فإن خروج النبات من الأرض بعد مكثه ببطنها

مدة من الزمن يشبه خروج الموتى من قبورهم يوم القيامة بعد أن لبثوا فيها ما شاء الله أن يلبثوا، إلى غير ذلك من وجوه الشبه المختلفة بين هذين الكائنين العجيبين، لفت الحق تعالى نظر العباد إلى ذلك فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ والسماء: هي المظلة المعروفة، والرجع: هو المطر على رأي الجمهور، ومعنى كون السماء ذات المطر أنه نازل من جهتها إما لكونه من بحر تحت العرش كما قيل ولا بعد فيه، أو لكون السحاب يحمله من بحار الأرض ثم ينزل من جهتها كما هو رأي علماء الطبيعة، وعليه قول بعضهم:

كالبحر يمطره السحاب وما له منّ عليه لأنه من مائه

وبعضهم يجعل المطر على نوعين: منه ما هو نازل من السماء حقيقة، ومنه ما حمله السحاب من بخار الأرض. وعن ابن عباس ومجاهد تفسير السماء هنا بالسحاب والرجع بالمطر أيضًا، وقيل: السماء هي المعروفة، والرجع الشمس والقمر والكواكب ترجع فيها من حال إلى حال، ومن منزلة إلى منزلة. وقيل: الرجع: الملائكة -عليهم السلام- لرجعهم بأعمال العباد ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي: ما تتصدع عنه وهو النبات، وأصل الصدع الشق، سمي به النبات مجازاً، وقيل: الصدع الحرث، وقيل: الطريق التي تصدعها المشاة، وعلى كل فالمقصود كما بينا لفت الأنظار إلى هذه المصنوعات، وما تضمنته من الآيات والعبر ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠،٢١).

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن المشتمل على ذكر المبدأ والمعاد ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فاصل بين الحق والباطل، لا ريب فيه هدى للمتقين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو جد كله ﴿وَمَا هُوَ

PDF Compressor Pro

بِالْهَزْلِ﴾ أي: ليس فيه شائبة من الهزل، كيف وهو كلام رب العالمين وخطاب أحكم الحاكمين، نزل به الروح الأمين على قلب أشرف المرسلين وأفضل الخلائق أجمعين، قد أعجز البلغاء وأعيى الفصحاء، كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجاني عن الحرم

وعن عليّ- كرم الله تعالى وجهه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة»، قلت: فما المخرج منها يارسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن لما سمعته عن أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن هدي به هدي إلى صراط مستقيم». فالواجب أن يكون هذا الكتاب العزيز مهيبًا في الصدور، مِعظمًا في القلوب، لا يمسه إلا المطهرون، لا يتلوه قارئه إلا وهو نظيف الظاهر والباطن، لا يقول فيه برأيه، ولا يشتري به ثمنًا قليلاً، ولا يعرضه للإهانة والاستهزاء، ولا يقصر في أوامره ونواهيه، ولا يتردد في شيء من وعده ووعيده. ولكن من الأسف قد نبذه كثير من المسلمين الآن وراء ظهورهم لا يهتمون بحفظه، ولا يعظمون حامله، ولا يستمعون إليه، يقرأونه وهم في خوضهم يلعبون وبحديث دنياهم مشغولون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: كفار مكة ﴿يَكِيدُونَ﴾ للقرآن ولمحمد ﷺ الذي جاء به ﴿كَيْدًا﴾ عظيمًا ليطفئوا نوره ويبطلوا دعوته، وذلك بإلقاء الشبه فيه والصد عن سبيله ودعوى أنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً. وتخصيص كفار مكة إنما هو بالنظر لسبب النزول وإلا فأعقابهم من الزنادقة والملحدين باقون إلى يوم القيامة.

وكم كادوا للقرآن وعابوه، وسخروا منه وبغضوه إلى النفوس، وادعوا أنه مختلق مفترى، وكم ألقوا في ذلك من المحاضرات، وكتبوا من المقالات في غير خجل ولا استحياء، تشبثًا بحرية الفكر والرأي، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أقابلهم بكيد أشد من كيدهم لا يطلع عليه أحد، ولا يستطيعون رده، أو أعاملهم بنقيض قصدهم، فأعلي كلمته وأنشر نوره وذكره في الآفاق -أي: أُعلي القرآن الكريم-، أو أملي لهم ليزدادوا إثمًا، وأستدرجهم من حيث لا يعلمون. كلما فعلوا معصية جددت لهم نعمة، وكلما تمادوا في القبيح أخرت العقوبة عنهم، فلا ينتقلون من معصية إلا إلى أخرى، حتى إذا جاء وقت الإهلاك أخذتهم وانتقمت منهم ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢) . ﴿فَمَهِّلِ﴾ يا محمد ﴿الْكَافِرِينَ﴾ لا تكترث بهم، ولا تشغل بالك بأمرهم، وانتظر أخذهم العقوبة والانتقام، فقد قرب الوقت كما قال: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: أمهلهم إمهالاً قريبًا، وليس هذا في الحقيقة أمرًا بتركهم والكف عنهم حتى ينسخ بآية السيف والأمر بالقتال، وإنما هو تسلية وتطمين للنبي ﷺ وللمؤمنين والله أعلم.

***

PDF Compressor Pro

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ صدق الله العظيم

[سورة البلد: ١ - ٢٠]

اتفق المفسرون على أن هذه السورة مكية، واختلفوا في ﴿ لا ﴾ من قوله تعالى: ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ هل هي مزيدة لتأكيد القسم، أو نافية لفعل القسم المذكور بعدها، أو لكلام مقدر معلوم من المقام، وهذا هو الأظهر عندنا، وبيانه أن الله جلت قدرته لما ختم السورة السابقة - سورة الفجر - بقوله: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠)، وكان هذا في قوة الأمر

PDF Compressor Pro

بتحصيل صفات النفس المذكورة، ووجوب التخلي عن أضدادها، أراد جل وعلا أن يزيد هذا الأمر تأكيداً وتقريراً، فقال: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ ...إلخ أي: لا تتكاسلوا أيها المكلفون، ولا تهملوا وتدعوا العمل اتكالاً على المكتوب والمقدور أزلاً؛ بل اعملوا وثابروا واجتهدوا في القيام بالتكاليف الشرعية، والتخلق بالأخلاق المحمدية لتحصلوا على تلك الصفات الفاضلة ومقامات النفس الرفيعة، وهي: المطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة، ولا تكونوا كالذين نسوا الله تعالى وعشوا عن ذكره فأنساهم أنفسهم، وأغفل قلوبهم عن حكمته في خلق الإنسان وتكليفه بالأمر والنهي. هذا مضمون النفي بهذا الحرف الكريم. وقد زاده بياناً وتوضيحاً بالقسم بعده حيث قال: ﴿ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ العظيم وهي مكة المكرمة، مهبط الوحي وموضع التنزيل، ومولد النبي ﷺ، ومقر البيت الحرام، قبلة الخلق كافة ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤) ومن هنا يعلم أن الأماكن كالأشخاص لا عبرة فيها بالمظاهر والظواهر، فإن مكة أرض قاحلة وبقعة جبلية ليس فيها من المناظر الجميلة والعمارات الفخمة والحدائق الغنّاء ما يخلب الألباب ويلفت الأنظار. ومع ذلك فقد اختصها الله تعالى بتكريمه وتعظيمه حتى استحقت أن يقسم بها في كتابه العزيز ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ أي: وأنت حلال بهذا البلد بأن تدخله فاتحًا ويحل لك القتال فيه. فهو وعد من الله تعالى، وبشارة للنبي ﷺ بفتح مكة المشرفة، وفيه معجزة للقرآن الكريم حيث تحقق ما أخبر به في المستقبل، فقد أنجز الله تعالى لحبيبه هذا الوعد الكريم، وفتح له مكة فتحًا مبينًا، أعز به دينه وجنده واستنقذ به هذا البلد الأمين من أيدي الكفار، وأحلها له عليه الصلاة والسلام يوم الفتح

PDF Compressor Pro

ساعة من نهار يقاتل فيها ويفعل فيها ما يريد، ولم يحلها لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده. كما قال ﷺ: «أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعضد بها شجرة، فإن أحدًا ترخص فيها لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، و «إنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب» ثم قال: «يامعشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» أي: الذين أطلقوا من الأسر والاسترقاق.

وروي أنه ﷺ في ذلك اليوم وضع رأسه تواضعًا لله تعالى وشكرًا لنعمة هذا الفتح العظيم حتى كاد رأسه الشريف يمس رحله من فرط التواضع والخضوع. فقد أخرجه الذين كفروا من هذا الوطن المحبوب وهو كاره لذلك ومغتم لما هم عليه من الكفر والعناد والعداوة والأذى الشديد له ولأصحابه وبخاصة المستضعفون منهم الذين خلفهم من بعده يتجرعون مرارة الذل والهوان، ويتحملون المكاره والمشاق وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً إلى الخلاص. وها هو الآن قد دخلها ظافرًا منتصرًا، معظمًا مبجلاً، وقد أسلم غالب أهله وأخرجهم الله من الظلمات إلى النور وذلك هو الفضل الكبير.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: وأنت حال ومقيم به الآن، وفي هذا من تعظيم القسم وتفخيمه ما لا يخفى، فإن مكة في ذاتها عظيمة وبحلوله ﷺ وإقامته فيها زاد عظمها وشرفها.

الفائدة الثانية هي: التنويه بشأن هذا القرآن الكريم والتنبيه على عظم مكانته وعموم نفعه؛ لأنه مادام منزله هو الرب المنعم المتفضل على عباده، فلابد أن يكون هو الكفيل بحاجات البشر، المتضمن لما فيه سعادتهم في العاجل والآجل، ومن ثم قال تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ الجليل القدر العظيم الشأن، المشتمل على جميع الخيرات والبركات، وهو الكتاب العزيز والذكر الحكيم، حبل الله المتين ونوره المبين، عصمة لمن تمسك به ومنجاة لمن تبعه، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الترداد ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ متهاونون مفرطون، وأصل الإدهان جعل الأديم - الجلد - مدهونًا بشيء من الدهن حتى يصير لينًا طريًا، استعير للتهاون؛ لأن المتهاون بالأمر لين غير متصلب فيه، ومنه المداهنة المذمومة شرعًا، وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه: لم يرض الحق تعالى من أهل القرآن- يعني العلماء- الإدهان في دينه، والسكوت على معاصيه، ولا ندري ماذا كان يقول هذا الخليفة لو وجد في هذه الآونة التي فشا فيها الإدهان، وكثرت المماألأة والمحاباة، حتى أصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، وكادت تضيع معالم الدين بالكلية؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وظاهر أن الهمزة في قوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ للتوبيخ والتشنيع، ويدخل في حيزه قوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي: شكر رزقكم وهو المطر الذي ينزله الله تعالى عليكم ويسقيكم إياه بمنه وكرمه ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: تجحدون فضل الله تعالى وتكفرون نعمته عليكم، فتقيمون الكفران مقام الشكران، حيث تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا، كما رواه ابن

عباس رضي الله عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر وفيهم كافر، قالوا- أي: قال بعضهم وهم الشاكرون- هذه رحمة الله وضعها الله، وقال بعضهم - وهم الكافرون - لقد صدق نوء[1] كذا، فنزلت هذه الآية ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ وروي أن ذلك كان في غزوة تبوك حين نزلوا الحجر - ديار ثمود- فأمرهم ﷺ ألا يحملوا من مائه شيئًا، ثم ارتحلوا ونزلوا منزلاً آخر وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام عليه الصلاة والسلام فصلى ركعتين ثم دعا فأمطروا وسقوا. فقال رجل من الأنصار يتهم بالنفاق: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا، فنزلت الآية الكريمة. والاقتصار على المطر لا يدل على تخصيصه بالحكم، فما من نعمة أنعم الله بها على عباده إلا وانقسم الناس فيها إلى قسمين: شاكرين وكافرين إلى يوم القيامة، يشهد لذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن زيد بن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية على إثر سماء - مطر- كانت من الليل، فلما سلم قال: «هل تدرون ما قال ربكم في هذه الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ما أنعمت على عبادي نعمة - مطراً كان أو غيره- إلا أصبح فريق منهم بها مؤمنين وفريق منهم بها كافرين، فأما من آمن بي وحمدني على سقياي، فذلك الذي آمن بي وكفر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي». وظاهر هذه الأحاديث الشريفة أن من يقول هذه الكلمة وهي : «مطرنا بنوء كذا» يكفر وهو

---

(١) النوء: سقوط بعض النجوم من منازلها في المغرب مع الفجر في أوقات معلومة وكانت العرب في الجاهلية تضيف لها الأمطار والرياح والحر والبرد.

محمول على من قال ذلك معتقداً أن النوء هو الفاعل المؤثر، الآتي بالمطر كما كانت تزعم الجاهلية وكما يزعمه الطبائعيون إلى وقتنا هذا، أما من قاله معتقداً أن الموجد هو الله تعالى، وأن النوء ميقات له فقط ومراده مطرنا في نوء كذا، أي: في وقت طلوع نجم كذا فلا شيء عليه. نعم، يكره له تنزيهًا أن يقول ذلك لما فيه من الإيهام والتشبه بكلام الجاهلية، وبعض الناس يمنع قول القائل: سقينا أو رزقنا أو نصرنا بفلان النبي أو الولي. والحق أن مثل هذا القول لا يمنع متى كان المقصود أن فلانًا هذا سبب في ذلك، وأن الفعل لله عز وجل، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأنفال: ٦٢)، وقال ﷺ: «فإنما تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» رواه أبو داود بسندين. وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ، فقال: «لعلك ترزق به» رواه الترمذي بإسناد صحيح على شرط مسلم.

ثم أخذ القرآن الكريم يبكت المشركين الجاحدين، ويسجل حماقتهم وسخافة عقولهم حيث جحدوا وجود الخالق عز وجل، وشكوا في قدرته على البعث والإعادة بعد الموت، وتعاموا عن الآيات الكثيرة في أنفسهم وفي الآفاق، الدالة على وجوده تعالى وشمول علمه وقدرته، وأنهم وجميع الخلائق العلوية والسفلية تحت سلطانه وقهره، يتصرف فيهم كيف يشاء ويصنع بهم ما يريد، فقال: ﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ روح المحتضر وهي خارجة من بدنه ﴿ الْحُلْقُومَ ﴾ وهو مجرى الطعام والنفس، وإنما عاد الضمير إلى الروح وهي غير مذكورة في الكلام؛ لأنها

مفهومة من المقام، واختلف العلماء في الروح هل يجوز الخوض في بيان حقيقتها أم لا؟ والراجح أنه لا يجوز، بمعنى يكره لعدم التوقيف من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وظاهر كلام كثير من السلف ومنهم الجنيد رضي الله عنه أنه يحرم حيث قال: الروح شيء استأثر الله بعلمه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنها بأكثر من أنها موجودة، قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٨٥) وفي ذلك إظهار لعجز الإنسان حيث إنه مع قطعه بوجود روحه لا يعلم حقيقتها، وقيل: بل يمكن معرفة حقيقتها، وعلى هذا فلا بأس بالخوض في ذلك.

قال الإمام النووي: وأصح ما قيل فيها على هذه الطريقة ما قاله إمام الحرمين من أنها جسم لطيف شفاف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء بالعود الأخضر، فهي على هذا حالة في البدن وسارية فيه جميعه، وهو ما يشعر به قوله تعالى هنا: ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ فإن وصفها ببلوغ الحلقوم ظاهر في أنها سارية في جميع البدن، وقيل: إن مقرها البطن، وقيل: القلب، وقيل: بقرب القلب من البطن، وقيل: محلها الكتف، وزعم البعض أنها غير حالة في شيء من البدن، وإنما هي متعلقة به تعلق العاشق بالمعشوق، ولكن هذا رأي ضعيف ترده النصوص المتضافرة والمشاهدات الصحيحة، وهذا كله في حال الحياة، وأما بعد الموت فأرواح الأنبياء في الجنة، وأرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح غيرهم من سائر المؤمنين قيل بأفنية القبور، وقيل عند سيدنا آدم عليه

PDF Compressor Pro

الصلاة والسلام في سماء الدنيا، وقيل: بالجابية بالشام، وقيل: غير ذلك، والحق كما قال الإمام مالك رضي الله عنه إنها تسرح حيث شاءت، ويكون لها بجسدها اتصال معنوي، ولذلك ورد أن من سلم على قبر شخص كان يعرفه يرد عليه السلام وهو في قبره ويعرفه، وأما أرواح الكفار فهي محبوسة في سجين، وقيل: في بئر برهون في حضرموت، وهي مدينة باليمن، وعلى كل فلها بأجسادها اتصال معنوي أيضًا. وجمهور العلماء على أن لكل بدن روحًا واحدة، وادعى العز بن عبد السلام أن لكل بدن روحين: روح الحياة، وهي التي إذا خرجت من البدن مات، وروح اليقظة وهي التي مادامت في البدن يكون صاحبه متيقظًا، فإذا خرجت منه نام والله أعلم، فهلا إذا احتضر أحدكم أيها الجاحدون المكذبون ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ إليه وتشاهدون بأعينكم ما يقاسيه من شدائد الموت وأهواله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ قربًا معنويًّا بعلمنا وقدرتنا لا قربًا حسيًّا، ذلك لاستحالته على الله تعالى، وقيل: المراد أقرب إليه بملائكتنا وهم ملائكة الموت سيدنا عزرائيل -عليه السلام- وأعوانه ﴿ مِنكُمْ ﴾ لأنكم لا تشاهدون إلا ظاهر أحواله فقط دون أن تحيطوا بكنه ما يعانيه وحقيقة ما يقاسيه، أو تقدروا على دفع شيء من ذلك ﴿ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ حقيقة قربنا منه، ولا تدركون كيفية تصرفنا فيه ﴿ فَلَوْلا ﴾ فهلا ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ أيها الجاهلون لعظمتنا وسلطاننا ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غير مربوبين ولا مقهورين ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي: الروح إلى مقرها من البدن بعد أن بلغت الحلقوم ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في نفي ربوبيتنا وفي إنكار البعث بعد الموت، وحاصل معنى الآية الكريمة، فهلا ترجعون روح المحتضر إلى

PDF Compressor Pro

مقرها من البدن إذا بلغت الحلقوم، والحال أنكم تنظرون إلى حاله وما هو فيه من الشدة والكرب إن كنتم غير مربوبين وكنتم صادقين في نفي البعث والجزاء على الأعمال، ومن المعلوم أنهم لا يقدرون على ذلك، وحينئذ فلا محيص لهم من الاعتراف بربوبيته تعالى والتصديق بما وعد به من البعث والنشور، ومن هنا يعلم أن ذات الإنسان وحدها كافية في الاستدلال على وجود الخالق جل وعلا «فمن عرف نفسه عرف ربه» كما جاء في بعض الآثار، ومعناه: من عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالذل والقهر عرف ربه بالعزة والسلطان وهكذا. وبعضهم فهم هذا الأثر على أن فيه تعليق مستحيل على مستحيل؛ لأنه يستحيل أن تعرف نفسك بمعنى روحك، فلا يمكنك أن تصفها وهي بين جنبيك بكيفية ولا أينية، ولا هي بمرئية لك، ولا أنت عارف كيف تحل في بدنك وكيف تخرج منه عند الموت، ولو كنت حاضر الوفاة ومشاهداً لأحوال المحتضر، فكيف لك مع هذا أن تصف الربوبية بكيف أو أين؟ ولعل من المستحسن إيراد ما ذكره بعض المحققين في مثل هذا المقام إذ قال في ملخصه: إن الله تعالى وضع هذه الروح الروحانية في هذه الجثة الجثمانية دالة على ربانيته ووحدانيته من عشرة أوجه:

١- إن الهيكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى مدبر ومحرك، وهذا الروح يدبره ويحركه، علمنا أن العالم لابد له من محرك ومدبر.

٢- لما كان مدبر الجسد واحداً وهو الروح، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له.

PDF Compressor Pro

٣- لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح، علمنا أن كل ما في الكون لا يتحرك بخير أو شر إلا بإرادته تعالى وتقديره.

٤- لما كان لا يتحرك شيء في الجسد إلا بعلم الروح وشعورها، علمنا أن الله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

٥- لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء، علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شيء، وليس شيء أقرب إليه من شيء.

٦- لما كان هذا الروح موجوداً قبل وجود الجسد ويكون موجوداً بعد فقد الجسد، علمنا أن الله تعالى كان موجوداً قبل وجود خلقه ويكون موجوداً بعد فقد خلقه، مازال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

٧- لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية، علمنا أنه تعالى متقدس عن الكيفية.

٨- لما كان الروح في الجسد لا يعرف له أينية، علمنا أنه جل وعلا متقدس عن الأينية .

٩- لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس.

١٠- لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر، علمنا أنه تعالى لا يدرك بالأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

PDF Compressor Pro

هذا ويمكننا أن نستنبط مما تقدم الأمور الآتية:

١- إن صلاح العالم وسعادة البشر موقوفان على العمل بكتاب الله تعالى، وعدم التهاون والإدهان بتنزيله الكريم وذكره الحكيم؛ لأنه هو الدواء النافع والعلاج الناجع الذي اختاره الله لخلقه وأنزله بعلمه وكلفهم الأخذ به في كل صغير وكبير من شئونهم، وإذا كان من المسلم به عند جميع العقلاء أن طرق التربية والتعليم يجب أن يوكل وضعها وتنظيمها للقائمين بشئون التلاميذ المشرفين على أحوالهم وميولهم، فكيف لا يعتقد مصلحو هذا الزمان أن طرق تهذيب العالم وإصلاح المجتمع يجب أن توكل لربهم العليم بهم وبما يصلحهم ويحقق سعادتهم دنيا وأخرى؟

٢- إن من ضروب الكفر والإشراك بالله تعالى إسناد الحوادث والآثار لغيره تعالى، كقول الجاهلية مطرنا بنوء كذا، على معنى أن النوء هو الفاعل المؤثر بخلاف ما إذا كان المقصود أن النوء ونحوه مسبب عادي لذلك فلا شيء فيه كما سبق، ومعلوم أن قرائن الأحوال مصدقة، وأن حسن الظن بالمسلم يجعلنا نحمل كلامه على أحسن المحامل.

٣- إن انقسام العباد إلى شاكرين وكافرين لنعم الله تعالى أمر لابد منه في هذا الوجود؛ لأن بهذا سبق القضاء الأزلي ولا مطمع لأحد في خلاف هذا، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣)، ولكن الدعاة إلى الله تعالى مأمورون ببذل الجهد في النصيحة والإرشاد للكل، وكل ميسر لما خلق له.

PDF Compressor Pro

٤- إن نظر الإنسان في ذاته وأحوال نفسه يكفيه في الاستدلال على خالقه تبارك وتقدس؛ لأن ما فيه من الضعف الطبيعي والعجز الفطري عن ضمان البقاء ودفع الموت عن نفسه أو غيره من بني جنسه يدل دلالة واضحة على أن له ربًّا مسيطراً عليه، قاهراً له، نافذاً فيه أمره، ماضيًا فيه قضاؤه وحكمه، فضعف الإنسان شاهد عليه بعبوديته، وهذا الضعف الطبيعي يستوي فيه جميع أفراد الإنسان، وقد قيل لبعضهم:بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، يعني أن الإنسان لو لم يكن له رب مسيطر عليه لما نقض عزمه شيء، ولا قصر عن فعل شيء.

٥- إن البشر مهما ارتقوا وتقدموا في الاكتشافات العلمية فلن يمكنهم عمل حيلة لاستمرار الحياة وإرجاع الروح إلى مقرها من الجسد بعد خروجها منه، وما يشاع عن الأوربيين من أنهم آخذون في ابتكار حيلة لذلك من جملة الخرافات التي لا يصح تصديقها بحال، ولهذا حكم الحق سبحانه وتعالى حكمًا باتًّا عامًّا لا يقبل استثنافًا ولا نقضًا فقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، كما قال هنا: ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الواقعة: ٨٦،٨٧).

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ صدق الله العظيم

سورة الواقعة [٨٨-٩٦]

كما بيَّن القرآن الكريم بالآيات السابقة حال الإنسان عند الوفاة، وأنه إذا بلغت روحه الحلقوم فليس لمخلوق كائنًا من كان أن يرجعها ويردها إلى مقرها من الجسد- شرع يبين بهذه الآيات الأخيرة حاله بعد الممات، وأنه لابد أن يكون واحداً من الأصناف الثلاثة المذكورة في صدر السورة الكريمة، فقال: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ الإنسان الذي احتضر ونزلت به أسباب الموت حتى بلغت روحه الحلقوم ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عند الله تعالى، وهم السابقون السابقون في أول السورة، عبر عنهم هنا بالمقربين؛ لأن ذلك أخص أوصافهم وأجمل أحوالهم ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فله روح، أي: راحة من عناء الدنيا وشواغلها الكثيرة، ومن مشقة التكاليف الشرعية من صلاة وصوم وجهاد ونحو ذلك، وما ورد من أن بعض الموتى يصلون في قبورهم ويتعبدون فذلك على سبيل التلذذ لا مشقة فيه، وظاهر قوله

تعالى: ﴿ فَرَوْحٌ ﴾أن المقربين لا يسألون في قبورهم، ولا عجب، فهم الخواص من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويمكن أن يقال: لا مانع أن يقع السؤال لبعضهم لكن لا يجدون فيه مشقة، ولا ينافي كونهم في راحة، وهذا هو الأظهر ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾أي: رزق حسن، وقيل: هو الريحان المعروف، لما ورد: لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة يشمه ثم يقبض[1].

وورد : إنَّ المؤمن إذا نزل به الموت تلقى بضبائر الريحان فتجعل روحه فيها، والضبائر جمع ضبارة بكسر الضاد: الحزمة كما في المصباح. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر ريحان، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويقال: أيتها النفس الطيبة اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح الله وكرامته، فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان، وطويت عليها الحريرة، وذهب به إلى عليين، وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمر، فتنتزع روحه انتزاعًا شديداً، ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك إلى هوان الله وعذابه، فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة، فإن لها نشيشًا ويطوى عليها المسح ويذهب به إلى سجين، والمسح بكسر الميم: ثوب من الشعر غليظ والجمع مسوح كحمل وحمول، والنشيش: الصوت الذي يسمع عند شي اللحم، وسجين: مكان مظلم موحش في أسفل الأرض

---

(١) فشمه الريحان هذا يكون قبل قبض روحه، ولا يقدح في هذا عدم مشاهدة الحاضرين لذلك؛ لأن ريحان الجنة لا يرى بأعيننا هذه.

PDF Compressor Pro

السابعة، وهو محل إبليس وجنوده، وقيل: هو جب في جهنم، وأما عليون فهو مكان في السماء السابعة تحت العرش: وقيل هو الجنة، وظاهر هذا الحديث أن أرواح السعداء في عليين، وأرواح الكفار في سجين بعد الموت، وقد سبق أن هذا أحد أقوال كثيرة في هذا الموضوع، كما أن ظاهره أيضًا أن الروح والريحان يكونان للمقربين في البرزخ قبل يوم البعث، وأما بعد البعث فجزاؤهم ما يأتي وهو قوله: ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ أي: جنة ذات نعيم خالد لا يفنى ولا يزول: فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وروي أن الكل في الآخرة، وهو لا ينافي حصول الروح والريحان في البرزخ كما لا يخفى. ثم ذكر الله تعالى أصحاب اليمين بقوله: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ المحتضر ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ وهم أقل رتبة من السابقين المقربين، وكلاً وعد الله الحسنى ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ ﴾ أي: فيقال له من الملائكة التي تأتيه من قبل الله تعالى: سلام لك أنت ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾، فالملائكة تسلم عليه، وتخبره بذلك عند الموت ليطمئن ويستبشر كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت:٣٠)، ومقتضى كون المقربين أعلى رتبة وأعظم فضلاً من أصحاب اليمين أن يكون هذا التسليم من الملائكة حاصلاً لهم أيضًا، وإن لم ينص على ذلك في جانبهم، وقيل: المعنى فيقال له: سلام لك كائن من إخوانك أصحاب اليمين، وعلى ذلك فيكون هذا التسليم واقعًا في الجنة بعد دخولهم إياها، والواقع أن كلاً حاصل، جعلنا الله تعالى من المكرمين في كل موطن.

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ المحتضر ﴿ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ أي: المكذبين الله تعالى ورسوله ﷺ، والمكذبين بالبعث والنشور والعذاب والعقاب وغير ذلك، من الضالين عن الصراط السوي في الحياة الدنيا، وهم أصحاب الشمال ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ فلهم نزل ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو الماء الشديد الحرارة يشربونه بعد أن يطعموا الزقوم. والنزل في الأصل أول ما يقدم للضيف عند قدومه من الإكرام، ففي تسمية هذا الحميم الذي يشربه المكذبون الضالون نزلاً نوع من التهكم بهم، وإشارة إلى أن ما ينتظرهم بعد ذلك من العذاب أشد وأنكى كما قال: ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي : إدخال في الجحيم مستمر لا ينقطع أبدًا، وهذا بيان لما يلقونه بعد البعث كما أن قوله: ﴿ نُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ بيان لما يلقونه في البرزخ. ثم بيَّن الحق تعالى أن جميع ما ذكر في هذه السورة الكريمة حق لا مرية فيه بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ المذكور كله من أول السورة إلى هنا ﴿ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي: لهو عين اليقين ونفس اليقين، ويحتمل أن يكون من إضافة الصفة للموصوف، أي: اليقين الحق، واليقين عند المتكلمين هو العلم الذي زال عنه الشك، وبعبارة أخرى هو اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا مطابق للواقع غير ممكن الزوال، وعند الصوفية اليقين هو استيلاء العلم على القلب حتى يغمره من جميع جهاته، وقد قال الجنيد رضي الله عنه: هو استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب، وعلامته كما قال بعضهم: الالتفات إلى الله في كل نازلة، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال وإرادة وجهه بكل حركة أو سكون. وينقسم اليقين إلى ثلاثة أقسام: علم اليقين، وعين اليقين وحق اليقين. فعلم اليقين هو الناشئ عن الدليل والبرهان، وعين اليقين

PDF Compressor Pro

هو اليـقين الناشـئ عن المعـاينة، وحق اليـقين هو اليـقـين الناشئ عن الذوق والتـحقـيق. مثـلاً علم كل إنسان بالمـوت قبل نزوله علم اليـقين، فإذا عـاين الملائكة فهـو عين اليقين، وإذا ذاق الموت بالفـعل فهو حق اليـقين، ثم اليقين منه ما هو كـسبي: وهو ما نشأ عن ترداد النظر وكـثرة الاستدلال، ومـجالسة الموقنين والاستماع إلى أقـوالهم والنظر في أحوالهم ونحو ذلك، ومنه ما هو وهبي بمحض الفـيض الإلهي من غير كـسب ولا تسبب، واليـقين محـبوب ومطلوب في جميع المعلومات وهي كثيرة متـشعبة، وقد أشار الإمام الغزالي في الإحياء إلى أمـهاتها فذكر من ذلك الـتوحيد، وبين أن اليقين فـيه بعد أن يرى الإنسان الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط ؛ بل يرى الوسائط مـسخرة لا حكم لهـا، فالمصدق بهـذا مادام قد انتـفى من قلبه إمكان الشك فـهو موقن بأحـد المعنيين السابقين وهو اليـقين عند المتكلمين، فـإن غلب على قلبه غلـبة أزالت عنه الغـضب على الوسـائط والشكر لهم، يعني أزالت الشكر لهم من حيث كونهم منعمـين لا من حيث جريان النعمة على أيديهم، وإلا فمن هذه الحيثية ينبغي شكر الوسائط قطعًا كما دلت عليه الآثار[1] ونزل الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوفيق فإنه لا يشكر القلم واليـد، ولا يغضب عليهـما؛ بل يراهما آلتين مـسخرتين فـقد صار موقنًا بالمعنى الثـاني وهو اليقين عند الصوفية، ومهـما تحقق أن الشمس والقمـر والنجوم والجـماد والنبات والحـيوان وكل مخلـوق فهي مسـخرات بأمره حـسب تسخـير القلم في يد الكـاتب، وأنَّ القدرة الأزلية هـي المصدر

---

(١) ما أحسن قـول بعض العارفين وقد ذهب إلى بعضـهم في قضاء حاجة: جـئناك في حاجة، فإن أذن الله تعالى في قـضائها قضيتـها وشكرناك، وإن لم يأذن الله في قضائها لم تقـضها وعذرناك. هذا هو التوحيد الحقيقي والدين الخالص.